مؤتمر «القطّان»

عملٌ مع الناس

وائل كشك

علِّي لا أبوح بسر إذا قُلت لكم أن ما شاهدته في مؤتمر مركز القطان لم يكن غريباً عليّ، أنا الذي غادرت المركز قبل بضعة أشهر وأبى حتى هذه اللحظة أن يُغادرني. لم أندهش من تلك المحاولات المستميتة من قبل زملائي لإعطاء المعلم فُرصة للحضور الفاعل على مستوى الشكل والمضمون، كما لم أتفاجأ من هذه المحاولات الجدّية من قبل المعلمين/ات المنخرطين في مشروعات المركز، في توسيع مساحة المعاني الشخصية لتجاربهم ودلالات أفعالهم، وفي الابتعاد عن الاستعمال المباشر والقار للكلمات، فكانت تجارب لا تعترف بتعيين الأشياء، كما هي في العالم الخارجي، بل كانت مسكونة بتوسيع مساحة الدلالة في العالم الداخلي للمعلم/الإنسان، وفي الوقت نفسه سعت هذه التجارب إلى الخروج عن نظام «السكك الحديدية» التي تسير على قضبان لا تخرج عنها.

ولكن ما أحزنني هو هذا الحذر من التجارب الجديدة، وعدم «رغبة/ تمكّن» بعض الحضور «في/ من» التقاط ما هو جوهري في كل تجربة. وقد شعرتُ بأرق بعض الحضور من هذه «اللامركزية» و«الإضافات الثقافية» في إطار الخبرات الشخصية التي طغت على المؤتمر شكلاً ومضموناً. علّق أحد الحضور وهو موجه في وزارة التربية هامساً في أذني: لو كل معلم بشتغل الدرس على هواه أو على حسب السياق-كما يقول القطان- كيف بدنا نضبط المعلمين؟ كيف بدنا نعرف الصالح من الطالح؟ على أي أساس بنقدر نكافئ أو نعاقب؟ . . . لازم يكون في مرجعية، والمرجعية الكتاب وتعليمات الوزارة . . . ».

ربما ما يؤرق من هذه «اللامركزية» و«الإضافات الثقافية» المتمثلة بتعدد الأصوات والخبرة الشخصية أن الأخيرة تعمل بقوة ضد السلطة والوحي الموضوعي، وتعدد الأصوات هو خروج على ما تقتضيه ثوابت السلطة من حيث هي منفعة وربح وبحث دائم عن نفوذ . . . تعدد الأصوات هو نفي للصوت الواحد الواجهة المثلى لقول الحقيقة المثلى، وفي الوقت نفسه تعدد الأصوات والتجربة الشخصية هما استعصاء أكيد على الضبط والتصنيف لوسائل السلطة وغايتها.

من خلال تجربتي القصيرة خارج المركز، وانخراطي في عدد من المشروعات المتعلقة بقطاعات المعلمين، وإطلالي على أخرى اكتشفتُ أمراً يعمل فرقاً بين مشروعات مركز القطان وتلك المشروعات: مشروعات مركز القطان هي «عمل مع الناس» أما تلك ففي معظمها «عمل على الناس» . . . هما حرفان فقط أو سقطة لغوية واحدة تُضاف إلى عشر سقطات أخرى رصدها أحد الحضور لإحدى الأوراق المُقدمة في المؤتمر.

وائل كشك- مركز التعليم المستمر
جامعة بيرزيت